القرن الماضي وما بعده!

في سبيل القيام بالمستحيلات، حوّلت البشرية قوى الطبيعة التي يتعذر ضبطها – وعلى الخصوص الجوع والطاعون والحرب – تحديات تمكن السيطرة عليها. ففي أيامنا هذه، يقضي النّاس بسبب التخمة أكثر مما يقضون بسبب الجوع، تقضي الشعوب بسبب تقدّمها بالعمر أكثر مما تقضي بسبب الأمراض المعدية، وينتحر المنتحرون بنسبة أكبر مما يستشهد المستشهدون على أيدي الجيوش والارهابيين والمجرمين مجتمعين. نحن الجنس الوحيد في التاريخ الذي غيّر بمفرده الكوكب بأسره، ولم نعد ننتظر أي كائن أسمى شأنه أن يقولب مصائرنا بالنيابة عنا.

ماذا من شأنه إذاً أن يحلّ محل الجوع والطاعون والحرب في قمّة جدول أعمال البشرية؟ وما المصائر التي نتوقعها لأنفسنا، وما المساعي التي نركن إليها؟

ثمة مشاريع وأحلام وكوابيس لا تزال تؤطر القرن الحادي والعشرين، من التغلب على الموت إلى ابتداع الحياة الصناعية. بيد ان ملاحقة هذه الأهداف قد تجعل في النهاية معظم الكائنات البشرية غير ذي حاجة ضرورية. لذا، نسأل: إلى أين نمضي من هنا؟ وكيف لنا أن نحمي هذا العالم السريع العطب من قوانا التدميرية بالتحديد؟ أجل، لا نستطيع أن نوقف مسير التاريخ، ولكننا نستطيع أن نؤثر في توجهاته. وهنا بعض الأضواء الكاشفة:

١ – المستقبل سيتجلى، في صميمه، على صورة الحاضر: سنستحوذ على تقنيات جديدة، ولكن القيم الإنسانية القديمة، كالحرية والمساواة، ستقود خطى عدد من الشرفاء العقلاء في العالم.

٢ – ان أهم المنتوجات في القرن الحادي والعشرين لن تكون في مجال الغزل والنسيج والمركبات والأسلحة وإنما في مجال الأجسام والأدمغة والعقول.

٣ – ولدت الثورة الصناعية الطبقة العاملة، وستولد الثورة الكبيرة المقبلة طبقة العاطلين من العمل.

٤ – الطريقة التي عامل بها البشر الحيوانات أسطع دليل على تحسّن معاملة البشر بعضهم لبعض.

٥ – الديمقراطية (على نواقصها عبر التاريخ) والسوق الحرة ستنهاران ما دام الغوغل والفايسبوك يعرفاننا أكثر مما نعرف أنفسنا، وستتحوّل النفوذ من الأفراد إلى الالكترونيات.

٦ – ثمة، لا محاربة، بل تناغم بين البشر والآلات.

هذا، على ما يبدو، سياق العالم الجديد، وهنا تكمن الفجوة بين أولئك الذين ركبوا القطار وأولئك الذين سبقهم القطار، وهي ستكون أوسع من الفجوة القائمة بين الامبراطوريات الصناعية والقبائل الزراعية، وهي حتى أوسع من الفجوة القائمة بين الإنسان العاقل والإنسان البدائي. انها مرحلة جديدة يمكننا أن نطلق عليها تسمية مرحلة التحوّل شطر الإنسان الخارق.

من أشدّ الامنا، عجزنا عن تفسيرها. فما بالنا نتلهّى بظاهر الأشياء، في حين ان خارج بلادنا تعليلاً لكل شيء بالعقل أولاً. حتى العقل لا يكفينا عندما ندرك ان ثمة أبعاداً بدائية لحياتنا تذكرنا بتلك العصور التي أشرنا إليها. حتى مكيافيلي تجلى في بدء العصر الحديث غريباً، على جانب من الرقي كبير وهو لم يخترع كما معظم «القيّمين» على شؤوننا التضليل السياسي!

د. جهاد نعمان